

حلم و جمل و فنون
۱۸۷۷

«حلم رجل مضحك» نشرت هذه القصة أول مرة في كراسة
شهر نيسان (ابريل) ١٨٧٧ من «يوميّات كاتب» (الفصل
الثاني)

١

حكاية عجيبه

أنا رجل مضحك • يقولون الآن انى مجنون • يكون هذا لقباً أعلى
لو أننى مازلت فى نظرهم مضحكاً • لكننى لن أزعج بعد الآن • فجميع
الناس لطاف فى معاملتى ، حتى حين يستهزئون بى ويتهكمون على •
بل هم ، حين يستهزئون بى ويتهكمون على • كأنهم أطف وأرق •
لولا أننى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم ، لسررتنى أن أشاركهم
الضحك ، لا على نفسى ، بل حرصاً على أن أسرهم • اننى أحزن حين
أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة ، الحقيقة التى أعرفها أنا • ما أشق أن يكون
المرء هو الوحيد الذى يعرف • ولكنهم لن يفهموا • لا ، لن يفهموا •

فى الماضى كان يؤمنى كثيراً أن أبدو مضحكاً • وأنا لم أكن أبدو
مضحكاً ، بل كنت مضحكاً • لقد كنت طول حياتى مضحكاً ، وأنا أعلم
أننى 'ولدت مضحكاً فى أكبر الظن • لعل سننى كانت سبع سنين حين
علمت أننى مضحك • ثم درست بعد ذلك فى المدرسة الثانوية ، وفى
الجامعة ، فكنت كلما أوغلت فى الدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً
من العلم أننى مضحك • حتى لكأن علمى الجامعى كله لم يوجد
الا ليبرهن لى ويشرح لى أننى مضحك كلما ازددت تعمقاً له ، وتوغلاً
فيه • وكان شأن الحياة كشأن العلم فى هذا • فكنت ، سنةً بعد سنة ، أزداد
يقيناً بأننى أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحي • لقد ضحك منى

واستهزأ بي جميع الناس في كل مكان وكل زمان . ولكن ما من أحد منهم خطر ببالي أنه اذا وجد في هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أنني مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال . والذنب في هذا ذنبي ، لأن خيالي منعني دائماً من الاعتراف بسرّي . وكانت هذه الخيلاء تزداد مع تقدمي في السن ، فلو اتفق ان انسقت في يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، اني رجل مضحك لهشمت رأسي بطلقة من مسدس في مساء ذلك اليوم نفسه . لطالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أنني لن أستطيع أن أقاوم ، وانني سأساق مرةً على حين فجأة ، فأعترف بالأمر لرفاقي . ولكنني حين صرت شاباً هداً بالي واطمأنت نفسي لسبب أو لآخر ، رغم أنني كنت أزداد اقتناعاً بشذوذي الرهيب سنةً بعد سنة ، وما ذلك الا لأنني مازلت الى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف ! لعل مردّ ذلك الى تلك الكآبة الواسعة التي استولت على نفسي في أعقاب ظرف يفوقني كثيراً ، ألا وهو اقتناعي ، الذي أصبح راسخاً مستقراً ، بأن كل شيء في هذه الحياة الدنيا « ليس له شأن » . كنت أشبه في ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكنني اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة . أحسست بفتةً أنني لن يهمني ألا يوجد العالم أو ألا يوجد شيء في أي مكان ، فلو حدث هذا لما اكرثت له ولا حفلت به . وأخذت أدرك وأحس أن لا شيء في نظري موجود في حقيقة الأمر . كان قد لاح لي دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وجدت قبلي . فأدركت في تلك اللحظة أن لا شيء كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن ثمة الا مظاهر . واقتنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شيء أبداً . فأصبحت عندئذ لا أغتاظ من الناس ولا أحنق عليهم ، وصرت أخسر الأمر لا أكاد ألحظهم . وقد تجلت هذه الحالة النفسية في ظروف من الحياة هي أنفه الظروف : فكان يتفق لي مثلاً وأنا سائر في الشارع أن أصطدم بالناس ؛ ليس معنى هذا أنني أكون مستغرقاً في فكرة

من الأفكار ، فقد أصبحت في ذلك الحين لا أفكر في الأشياء التي ينبغي أن أفكر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت في نظري ، فلست أحفل بشيء ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التي تعرض لفكر المرء ، ولم أحلّ منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكرى مشكلات أصلاً . فمن « قلة اكترائي » ، ذهبت المشكلات أدراج الرياح .

ولكن هأنذا أعلم الحقيقة . لقد انكشفت لي هذه الحقيقة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، في اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة ، فأصبحت مائلة في ذاكرتي منذ ذلك الحين كل لحظة . حدث ذلك في ليلة مظلمة ، في ليلة كانت أحلك الليالي ظلاماً . كنت عائداً الى بيتي في نحو الساعة الحادية عشرة . أذكر ذلك . وكنت أفكر في أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلة أحلك ظلاماً من هذه الليلة . وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم أذكر ذلك . . . ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجأة ، في نحو الساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التي كانت منتشرة أثناء انهمار المطر . كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشوارع ، ومن كل زقاق ، حين تسرح طرفك في بعيد فتري الحارة من أولها الى آخرها . وبدا لي فجأة أن المرء يقل احساسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز في كل جهة من الجهات ، فالى هذا الحد كانت أضواء مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائها الضوء على هذا كله . لم أكن قد تعشيت في ذلك اليوم . وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحبة رفيقين له . فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلا بد أنني أضجرتهم . وقد تحدثوا في أمور مثيرة ثم اذا بالفضب يستولى عليهم . ولكنهم كانوا في الحقيقة غير مكترئين - رأيت ذلك رؤية واضحة - وكانوا لا يتحمسون ذلك التحمس الا شكلاً بغير

مضنون • فاذا أنا أقول لهم فجأة : « يا سادة ، حقيقة الأمر أنكم غير
مكثرين ، فلم يفضبوا ، ولم يزيدوا على أن ضحكوا لسماع هذه
الكلمات • وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أى معنى من معانى اللوم ،
وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لى غير مثير للاهتمام أو الاكتراث ،
وقد لاحظوا قلة اكترائى ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون •

حين دارت فى رأسى تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا فى
الشارع ، رفعت عينى نحو السماء • كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمة
ظلاماً رهيباً • ولكن المرء يستطيع أن يميّز فيها مزق السحاب تميزاً
واضحاً ، وأن يرى فى هذه السحاب بقعاً سوداً عميقة • وبينما كنت
أنظر فى هذه السحاب اذ لمحت فى احدى تلك البقع نجمة صغيرة ،
فأخذت أتأملها محدقاً • ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت فى نفسى فكرة •
قررت أن أتحر فى تلك الليلة نفسها • كنت قد عزمت على الانتحار منذ
شهرين ، فاشتريت ، رغم شدة فقرى ، مسدساً رائماً لقمته فى ذلك اليوم
نفسه • وانقضى شهران والمسدس لا يزال نائماً فى الدرج • ولكنى بلغت
من قلة الاكتراث بأى شئ أننى أصبحت أشتهى أخيراً أن تأتى الدقيقة
التي يبدو لى فيها الانتحار جديراً بالاكتراث • لماذا ؟ لا أدرى • وصرت
كلما سرت عائداً الى بيتى فى الليل ، يخاطر ببالى أن أطلق الرصاص على
رأسى • وأخذت انتظر أن تجيء اللحظة الملائمة المناسبة • وها هى النجمة
التي أراها فى السماء توحى الى " بفكرة : أن أنفذ الليلة ما عزمت عليه ،
« حتماً » • فاذا سألتنى لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة فى
نفسك ، لأجبتك بأننى لا أعرف ذلك معرفة تامة •

وفى تلك الأثناء ، بينما كنت أنظر فى السماء ، انما أمسكت تلك
البنت الصغيرة كوعى • كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة ، أو قل انه
قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد • كان هناك حودى يقفو على مقدمه •

ان البنت الصغيرة هى فى نحو الثامنة من العمر • كان رأسها مغطى
بمنديل ، وكانت ترتدى ثوباً رثاً ، وكان الماء يسيل عليها • ولكن بصرى
وقع خاصة على حذاءيها الثقوبين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها •
مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن • لقد خطف هذان الحذاءان انتباهى
أكثر من أى شىء آخر • وأخذت البنت الصغيرة تشدنى من كوعى
منادية مستعجدة • كانت لا تبكى • وكانت تنادىنى متقطعة الصوت ،
موعوعةً بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذى كان يجعلها
ترتجف ارتجافاً شديداً • كانت تبدو مذعورة من شىء ما ، وتصيح
يائسة : « أمى ، أمى العزيزة ! » • التفت اليها ، ولكننى لم أقل لها كلمة
واحدة ، وتابعت سبرى • ركضت ورائى ، وشدتى من ذراعى ، بينما
كان يخرج من حلقها صوت أجش أبج هو ذلك الصوت الذى تسمعه
من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس • اننى أعرف
هذه اللهجة • وفهمت من وعوععتها ، رغم عدم اشتغالها على كلمات
ملفوظة ، أن أمها تحضر فى مكان ما ، أو أن شيئاً من هذا القليل قد
حدث لها اللحظة ، فركضت تبحث عن انسان أو شىء يغيث أمها •
ولكننى لم أتبعها • وأكثر من ذلك أتتى خطر ببالى فجأة أن أنهرها
وأطردها • قلت لها فى أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطى • ولكنها
سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احدهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ،
وانفجرت تبكى لاهثة ، وظلت تسير الى جانبى لا تتركنى ، فلم يسعنى
الا أن أستمها قارعاً الأرض بقدمى • فلم تزد على أن تصيح قائلة :
« سيدى ، سيدى ••• » ، ثم تركتنى فجأة لتقطع الشارع بسرعة
كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها
تركنى لتركض اليه •

صعدت السلم حتى بلغت مسكنى الذى يقع فى الطابق الرابع •
ان المسكن شقة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون • وغرفتى فى

هذه الشقة صغيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة . انثى ديوان مغطى بقماش مشمع ، ومائدة عليها كتبى ، وكريسيان ، ومقعد قديم متقوض ، لكنه من طراز فولتير . جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت فى التفكير . وكان فجور يملأ الغرفة المجاورة فى الجهة الأخرى من الحاجز . ان هذا الفجور قائم منذ يومين . فالشخص الذى يعيش فى تلك الغرفة كابتن محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب . وقد نشبت بينهم مشاجرة فى الليلة الماضية ، وعرفت أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة . وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يربعها . ولم يكن فى البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضامرة هى أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً . وكان الأولاد وأمههم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلون يرتجفون ويصلون طوال الليل . حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية . وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شارع نفسكى مستعظياً اياهم صدقة . وما كان لأحد أن يعهد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل . ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجيء على ذكره) لم يثر فى نفسى أى شعور بالنفور منه والكره له ، وقد انقضى على سكناه فى هذا البيت شهر كامل . صحيح أننى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بينى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لسئم صحبتى على كل حال . وانما أحب أن أذكر أننى كنت لا أكثرث ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التى يحدثها هو وصحبه صاخبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً . وقد تعودت ألا أرقد طوال الليل ، وكنت فى حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت فى النهاية وجودهم . اننى

لا أستطيع أن أغمض عينيّ قبل بزوغ الفجر ، وذلك منذ سنة • لذلك أقضى الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل شيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا في النهار) حتى اننى لا أفكر فى شيء ، وانما أدع لأفكارى أن تطوف متسرّدة على ما يشاء لها هواها • وتذوب الشمعة الى آخرها • وقد جلست فى هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعتة قريباً من يدي • وتساءلت حين وضعته قريباً من يدي (أتذكر ذلك واضحاً) : « أهذا مؤكد محقق ؟ » وسرعان ما أجبت نفسى بأنه مؤكد محقق طبعاً ، أى بأننى سأنتحر لا محالة • كنت أعلم فى تلك الليلة أننى سأقتل نفسى يقيناً ، ولكننى كنت أتساءل عن المدة التى يجب أن أبقاها جالساً الى مائدتى أنتظر اللحظة الأخيرة • ذلك أننى كنت لا أعرف تلك اللحظة على وجه اليقين • وما من شك عندى فى أننى كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت فى الشارع تلك البنت الصغيرة •

رغم اننى صرت لا أكثر بشيء ، فقد بقيت امراً حساساً ،
ولو حساساً بالألم مثلاً . فلو ضربنى أحد لتألمت . وقولوا مثل هذا
عن الألم النفسى . فاذا حدث لى شيء محزن جداً شعرت بحزن كالذى
كنت أشعر به من قبل ، كما أتنى لما أفقد بعد كل اكترائى بكل ما فى
الحياة . فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان فى وسعى أن أغيب
تلك البنت الصغيرة طبعاً . فما هو السبب فى أننى لم أغتها ؟ السبب هو
تلك الفكرة التى انبثقت فى ذهنى بينما كانت البنت تشدنى من كفى
منادية مستنجدة ؟ وهناك سبب آخر هو سؤال ألقى نفسه على فجأة
ولم أستطع أن أجده له جواباً . هو سؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه
ولا طائل تحته ، ولكنه أحقنى وأثار فى نفسى غيظاً شديداً . ولقد جاء
الغيط من هذا التفكير المنطقى : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة فى
هذه الليلة نفسها ، فان كل شيء فى هذه الحياة يجب أن يمضى غير مثير
لاكترائى فى هذه الساعة أكثر من أى ساعة مضت . فلماذا أحسست
فجأة بأننى لست غير مكترث بشيء ، واننى أرثى لحال تلك البنت الصغيرة
وأشفق عليها ؟ أذكر أننى رثيت لحالها وأشفقت عليها اشفاقاً شديداً ،
حتى أننى أسيت لها أسى لا يليق البتة بحالى . اعترف لكم بأننى لا أفصح
فى تصوير الاحساس الذى اجتاح نفسى حينذاك . ولكن ذلك الاحساس
قد بقى فى نفسى لا يغادرها . فلما جلست الى مائدتى فى غرفتى كنت

فى حالة من الغيظ والحنق أشدّ من سابقتها . وأخذت الاستدلالات المنطقية تتعاقب فى فكرى ويتصل بعضها ببعض ؛ فكنت أقول لنفسى : « من الواضح أنتى انسان ، وأنتى لست صفراً ، وما ظلمت انساناً ، وما لم استحل صفراً ، فأننى أحيا ، ويمكن اذن أن أتألم وأن أغتاظ وأن أشعر بخزى من أفعالى . طيب . ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين مثلاً ، ففيم يهمنى شأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور بالخزى ، وسائر ما عداه ؟ سأكون قد استحلت الى صفر ، الى صفر مطلق . فهل ' يعقل ألا يكون لمعرفتى بأننى بعد قليل سأبارح الحياة مبارحة ' تامة » ، وأن كل شئ مثلاً لن يكون له وجود فى هذا العالم ، هل ' يعقل ألا يكون لهذا أى تأثير لا فى شعورى بالشفقة على البنت الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحقارة التى ارتكبتها ؟ ذلك أنتى حين قرعت الأرض بقدمى ناهراً زاجراً انما أهنت البنت التعيسة . وهذه الحقارة الخالية من الشعور الانسانى قد ارتكبتها ، لا لأبرهن على أنتى أمسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شئ سينتهى بعد ساعتين ، . قولوا لى بصراحة : هل تصدقون أنتى لهذا السبب انما صرخت زاجراً ؟ انتى من جهتى أميل الى الاعتقاد بهذا . لقد كنت أتصور تصوراً واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان علىّ وحدى ؛ حتى ليكن أن أقول انتى كنت أتصور فى تلك اللحظة ان العالم لم ' يخلق الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسى برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود ، بالنسبة الىّ على الأقل . ناهيك عن أن من الممكن حقاً ألا يبقى للعالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال شبح متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا . أذكر انتى حين كنت جالساً الى مائدتى كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة وأرى فيها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

جديدة • من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأة • قلت
 لنفسي : « هبنى عشت فى الماضى فى القمر أو فى المريخ ، وهبنى ارتكبت
 هنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنة البشعة الى أبعد حدود البشاعة ،
 هبنى ارتكبت أحقر دناءة يتمثلها الخيال ، فصرت مجللاً بخزى وعار
 رهيبين لا يتصور المرء مثلهما الا حين يصيبه فى نومه جانوم ثقيل ؛ وهبنى
 اسبقت فجأة فاذا أنا أجد نفسى على الأرض لا فى القمر ، ولا أزال
 شاعراً بما ارتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت فى الكوكب الآخر ،
 ولكننى موفن يقيناً قاطعاً باننى لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر فى يوم
 من الأيام مهما يحدث ، أفلا تستوى فى نظرى « جميع » الأمور فى
 القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أشعر عندئذ بالخزى من
 ذكرى الجريمة التى اقترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها وليسيت فى محلها ،
 لا سيما وأن المسدس موضوع على المائدة أمامى ، وأنتى أعرف بكل
 جوانحي أن « الأمر » سينم انفاذه ؛ ولكنها أسئلة تثير فى جسمى حمى ،
 وتبعث فى نفسى أقصى الاضطراب • فكان يستحيل على نوعاً من
 الاستحالة أن أموت الآن ، اللهم الا أن أهتدى قبل ذلك الى حل
 للمسألة • الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتنى من الانتحار • لأننى
 بالانتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبنت طلبة المسدس • وفى أثناء ذلك
 كان كل شئ فى غرفة الكابتن يسكن ويهدأ • فقد انقطعوا عن اللعب
 بالورق ، وتهيئوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضع دمدمات من حين الى
 حين ، والا بعض الشنائم يتشاب بها صوت وسان • وحينذاك انما أخذنى
 النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لى فى يوم من الأيام قبل الآن ،
 أمام المائدة فى المقعد • نمت دون أن أحس باننى نمت • والأحلام ، كما
 لا يجهل أحد ذلك ، أمرها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك
 بكل ما فيه من حدة رهبة ، واضحاً مفصلاً دقيقاً كدقة المصوغات حين
 تخرج من بين يدي الصائغ ؛ وفى بعضها تجتاز الفضاء ، وتخرق الزمان
 دون أن يخطر لك ذلك على بال • فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب • ومع ذلك ما كان أبرع عقلي
 في الأحلام أحياناً ! حتى انه يقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصى تفسيرها • من
 ذلك منسلاً أن أخى ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لى فى الأحلام ،
 ويشاركنى أعمالى ، فنعكف عليها مهتمين بهما أكبر الاهتمام مشغوفين بها
 أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالى مرة واحدة أثناء الحلم أن أخى
 ميت وأنه مدفون • فكيف لا أحس بدهشة حين أراه جالساً بجانبى
 يشاركنى عملى ، مع علمى بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلى أن يقبل
 هذا كله ؟ ولكن كفى ! فلأحدثكم الآن عن الحلم الذى رأيته • نعم ،
 فى تلك الليلة انما رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين
 الثانى (نوفمبر) •

بعض الناس يسخرون منى الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً •
 ولكن ألا يستوى أن يكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذى
 بلغنى « الحقيقة » • فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك
 أننى رأيته فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجاؤتنى فى الحلم أم انكشفت
 لى فى الحياة الواقعية • فليس يضيرنى ألا يكون ذلك الا حلماً • ان
 هذه الحياة التى تضعونها فى أعلى منزلة كنت أنا فى تلك الليلة مستعداً
 لانهايتها بطلقة مسدس • أما حلمى ، أما حلمى ، فقد بلغنى رسالة
 حياة جديدة ، راحة ، منبثة ، قوية •

• اسمعوا •

٣

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أزال
أفكر فى تلك الأمور نفسها • وفجأةً حلمت بأننى تناولت المسدس ،
وسددته الى قلبى مع بقائى جالساً ؛ سدده الى قلبى لا الى رأسى ،
وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر • فبعد
أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثانيتين ، ثم اذا
بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنح جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت
أطلق الرصاصة فى قلبى •

يحدث أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عال شديد
العلو ، أو أن ترى أنك 'تطعن' أو 'تضرب' • ولكنك لا تحس بألم أبداً ،
اللهم الا أن تكون قد لكمت بيدك حديد السرير مثلاً ، فتجس عندئذ
بألم فتستيقظ • وكذلك حدث لى فى هذا الحلم ؛ لم أشعر بأى ألم من
اطلاق الرصاصة فى قلبى ، ولكن خيّل الى اننى أحس بنوع من
صدمة ، ثم زال كل شيء فجأةً ، ولبثت غارقاً فى ظلمات رهيبة ؛ وكأننى
قد صرت أعمى وأخرس ثم هأنذا مسجى تحت شيء صلب ، قد امتددت
مقلوباً ، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتى بأيسر حركة ، والناس من حولى
تسير وتصرخ ، والكابتن 'يرعد' ، والمؤجرة 'تعول' • وهؤلاء نفر يداهمون
غرفتى من جديد ، وينقلوننى مكشوفاً فى تابوت ، فأحس بالتابوت يترجح

تحتى ويهتز ، فأفكر فى هذه الواقعة ، ويدهشنى لأول مرة أن أتصور
أننى مت ، أننى مت حقاً . وصرت عالماً بموتى كل العلم ، لا يساورنى
فيه شك ولا ريب . اننى لا أبصر ولا أتحرك . وان كنت أحس وأفكر .
على أننى سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع
بغير مناقشة ولا جدال .

وهاهم أولاء ينزلوننى فى الأرض ثم ينصرفون ، فأبقى وحيداً ، وحيداً
كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحرك من أعضائى عضواً . اننى قبل ذلك ،
أثناء سهرى الليل ، حين كنت أطلق لحياى العنان فأتصور كيف ستكون
حالى فى القبر ، كنت لا أربط بهذا التصور على وجه الاجمال الا الاحساس
بالرطوبة والبرد . لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما فى أقصى
أصابع رجلى ، ولكننى لا أحس بشىء عدا هذا .

كنت مضجعاً . ومن غريب الأمر أننى كنت لا أنتظر شيئاً ،
فأنا مسلم دون اعتراض بأن على الميت ألا يتوقع حدوث شىء . ولكن
الرطوبة شديدة . لا أدري كم انقضى من الوقت . لعل ما انقضى من
الوقت ساعة ، أو لعله عدة أيام ، أو لعله أيام كثيرة . ثم اذا بقطرة كبيرة
من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء التابوت على عيني اليسرى التى كانت
مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخرى تسقط ، وهكذا دواليك ؛ فى كل دقيقة
تسقط قطرة . فأحس بغيظ عميق يكوى قلبى ، ثم لا ألبث أن أشعر
فجأة بألم جسمى فى قلبى . قلت لنفسى : « هذا جرحى ، هذه هى
الرصاصة التى أطلقتها فى صدرى انها ثاوية فى قلبى » وكانت
قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة ، وتقع على عيني المغمضة رأساً .
فلم يسعنى عندئذ الا أن أنادى ، ولكن ندائى لم يكن بصوت ، لأننى
جامد لا أتحرك ، وانما كان ندائى بكيانى كله ، ناديت الحكم الذى
يتصرف فى كل ما كنت 'ألعوبة بيده . قلت له أياً كنت أنت - هذا اذا
سلمنا بأنك كائن ، وبأنه يوجد أى شىء يمكن أن 'يعقل وجوده سوى

ما أنا العوبة بيده - ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تنتقم منى بسبب انتحارى الاحمق ، فتوقع فى هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقار الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! » ♦

كذلك قلتُ ثم سكت ♦ وانقضت قرابة دقيقة فى صمت عميق ، حتى ان قطرة ماء قد سقطت ، ولكننى كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً فويلاً راسخاً لا يتزعزع أن كل شيء لابد ان يتغير فى هذه اللحظة نفسها ولا ريب ♦ وها هو ذا قبرى ينفتح فجأة ، أو قل لا أدري اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكننى أعلم أن كائناً غامضاً لا اعرفه قد أمسكنى ، ثم اذا نحن كلانا نطير فى الفضاء ♦ و'رداً الى بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك ابداً ، أبداً ♦ لم أسأل ذلك الذى كان ينقلنى ♦ وانما انتظرت لائذاً بكبريائى منطوياً على خيلائى ♦ كنت مقتنعاً بأننى غير خائف ، وكنت فى نشوة من حماسى لعدم خوفى ♦ لا أذكر الآن كم طال طيرائى ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً فى الحلم حين يجتاز الحالم تخوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل ، وحين لا تلبث الا على النقاط التى يرنو اليها قلبه ♦ أذكر أننى أبصرت فى الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة ♦ فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبى الذى كان يطير بى : « أهذا كوكب سيرْيوس » ، مع اننى كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجابنى بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذى لمحت بين السحاب حين كنت عائداً الى بيتك ♦ ♦ »

كنت أعلم أن هذا الكائن الذى يطير بى له مظهر انسان ♦ ومن غريب الأمر أننى لم أحب هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقظ فى نفسى كرهاً عميقاً له ♦ لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصه في قلبي ، فما بالي أجد نفسي بين ذراعي كائن ليس هو بالإنسان حتماً ، ولكنه « موجود » قطعاً . قلت لنفسي : « فلا بد أن هناك حياة اخرة تلي القبر ا » ، قلت لنفسي ذلك مدفوعاً بما في الحلم من خفة غريبة وطيش عجيب ، ولكن هذا لا ينفي أنني احتفظت في قرارة قلبي بميزتي الأساسية ، فقلت لنفسي : « اذا كان المقصود هو أن « أوجد » من جديد ، وأن تحيى ارادة لا مفرّ منها حياةً أخرى ، فأنى لا أريد أن أكون مغلوباً ولا أريد أن 'أذل' » . فقلت لصاحبي فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذي يشتمل على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجبن بآبرة تثقب قلبي ثقباً : « أنت تعلم أنني أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب في أنك تحتقرني . » فلم يجب ، ولكنني أحسست على الفور أنه لا يحتقرني ، وأنه لا يسخر مني ، وحتى أنه لا يشفق عليّ ، وأن رحلتنا تمتد الى غاية مجهولة سرية لا شأن لأحد بها غيري ، ولا تتعلق الا بي . فازداد الرعب في قلبي . وانتقل سكوت صاحبي الىّ ، ونفذ فيّ حضوره الصامت مؤلماً بعض الألم . كنا قد توغلنا في ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التي ألفتها عيناى قد غابت عنى منذ مدة طويلة . وكنت أعلم أن في آخر السماء نجوماً لن تصل أشعتها الى الأرض الا بعد ألوف السنين وملايين السنين . فلعلنا قد قطعنا تلك الفضاءات كلها . كنت أنتظر شيئاً ما ، وكانت نفسي زاخرة بحنين أليم يطعن القلب . وانى لكذلك اذا بعاطفة أعرفها كل المعرفة ، عاطفة توقف الماضى ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كيانى كله على حين فجأة . لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التي أراها لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن » التي ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له ، ولكننى كنت أدرك بينى وبين نفسي أنها شمس تماثل شمسنا معائلة مطلقة ، فهمى منها بمثابة الصدى أو هي لها نظير . فغمر نفسي حنان كبير بثّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء

الذى خلقنى قد ترَّجعت فى قلبى وأحسسته ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر •
وهتفت أقول لصاحبى سائلاً :

– ولكن اذا كانت هذه هى الشمس ، اذا كانت هذه شمسنا نفسها ، فاين هى الأرض ؟

فأرانى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براقه فى ظلام الليل • وكنا نتجه فى طيراننا الى ذلك الكوكب •

– ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن فى هذا الكون ، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هى أرضنا نفسها ••• أو أن تكون مثلها تماماً فى الشقاء والفقر ، وفيما نضمرة فى أنفسنا مع ذلك من حب لها وشفغف بها الى الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبب بها أبناءها ، حتى أجحدهم وأشدّهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها • ومرت فى خاطرى بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المهانة المعذبة • قال لى صاحبى :

– ستعرف كل شئ •

وكان فى كلماته ما يشبه أن يكون نبوة أسى •

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؟ فلما أخذت أميّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغيرة غريبة تشتعل فى قلبى ، غيرة نيلة مقدسة • قلت لنفسى : « كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادرتها ، ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيت عليها لطخات من

دمى حين عمدت ، أنا الاين العقوق ، الى انهاء حياتى برصاصه أطلقتها
 فى قلبى • وما كفت فى يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى
 فى تلك الليله التى ودعتها فيها ، بل لعلنى كنت أحبها عندئذ حباً أقوى
 استناراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبنى لها فى أى وقت مضى •
 هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هنالك فى أرضنا
 لا نستطيع أن نحب الا باللم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم •
 فنحن لا نحسن أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حباً آخر • فأنا أطلب
 الألم لأستطيع أن أحب • ما أقوى سهوتى وما أشد ظمئى الى أن أعانق
 تلك الأرض وحدها باكياً ، تلك الأرض التى أحبتها وهجرتها ، ولا أريد
 أن أعيش فى أى أرض أخرى غيرها ، بل أرفض أن أعيش فى أى
 أرض أخرى غيرها ! • • • • •

ولكن صاحبنى كان قد تركنى • واذا أنا أجدنى فجأة على تلك
 الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالى ذلك ، غارقاً فى الضياء الساطع من
 يوم مشمس جميل كجمال الجنة • فخيّل الى أننى هبطت الى واحدة من
 تلك الجزر الصغيرة التى يتألف منها على أرضنا أرخيل اليونان ، أو هبطت
 فى مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخيل • كان كل شئ فى تلك
 الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبيهاً تاماً • ومع ذلك كان كل شئ يشع منه نوع
 من الجبور والجذل والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة • وكانت مياه بحر
 كالزمرد تتكسر تكسراً خفيفاً على الشاطئ • فتلعبه ملاعبة فيها حب
 ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً • وكانت تنتصب فى الفضاء أشجار
 باسقة فارعة الأغصان تتألق بغزارة نسغها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؟
 ولا شك أنها كانت تحينى بحفيفها الرقيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لى
 بكلمات حب • وكان المرج يزدهى بنبت دافئ عذب لذيد • وكانت
 الطيور تشق الهواء أسراباً ، وتأتى الى بلا خوف فتخط على كنفى ويدي
 وهى تصفق بأجنحتها الراحشة صقاً فرحاً • وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاءوا الى من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بى ، وعانقونى وقبلونى • أبناء الشمس ، أبناء شمسهم ... ألا ما كان أجملهم ! ما رأيت فى يوم من الأيام مثل هذا الجمال فى الانسان على أرضنا ! قد تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندما ، فى السنين الأولى من حياتهم ، شيئاً يشبه أن يكون صورة باهتة ضعيفة لهذا الجمال الذى رأيت فى سكان ذلك الكوكب من البشر • ان أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف وضئ • وان وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمال هدوئه وتمام رصانه • ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح الأطفال يرن فى أقوال هؤلاء البشر وفى أصواتهم ! آ ... فهمت كل شئ ، كل شئ ، من أول نظرة • هنا كانت الأرض قبل أن تدنسها الخطيئة الأصلية : ان سكانها الذين لا يعرفون الشر يعيشون فى هذه الجنة نفسها التى تتناقل الانسانية كلها أن أجدادنا الجنة قد عاشوا فيها ، مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها فى كل ركن من أركانها وكل جهة من جهاتها • ازدحم حولى هؤلاء البشر الذين يضحكون ضحكة جذلى ، وغمرونى بملاطفاتهم ، ومضوا بى الى منازلهم ، فكانوا جميعاً يريدون أن يغدقوا على الراحة اغداقاً ، وأن يسكبوها لى سكباً • ولم يلقوا على أسئلة فكأنهم كانوا يعرفون كل شئ ، وكأن نفوسهم لا تهيش فيها الا رغبة واحدة : هى أن يمحووا بأقصى سرعة ما كان منقوشاً على وجهى من علائم العذاب والألم •

٤

هأنتم أولاء ترون مرةً أخرى : أى ضير فى أن يكون الأمر حليماً ؟
 ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث فى نفسى أثراً باقياً
 لا يفنى ، وانى لأحس أن حبهم لا يزال يغسل روحى بمياهه النقية من
 هناك الى الأبد . ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتأملت لهم
 بعد ذلك ! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أننى فى كثير من الأمور
 لا أفهمهم : لم أفصح مثلاً فى أن أفهم ، أنا التقدمى الروسى الحديث ،
 أنا البطرسبرجى العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل
 ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلمنا نحن . ولكننى لم ألبث أن
 أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على ادراكات تختلف
 عن ادراكاتنا كل الاختلاف ، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل
 الاختلاف أيضاً . انهم بلا رغبة ، وهم فى هدوء نفوسهم وسكينتها ،
 لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعتنا نحن الى معرفتها ، ما داموا قد بلغوا
 حالة الكمال . ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا ، لأن
 علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس
 كيف يحيون . أما هم فليسوا فى حاجة الى علم ليعرفوا كيف يجب
 عليهم أن يحيوا . ذلكم ما أدركته بدون أن أفصح فى فهم معرفتهم . لقد
 أرونى أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون اليها بحب يبلغ هذا
 المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم .

كانوا يكلمون الأشجار فعلاً : اعلّموا اننى لا أعتقد أن الأمر مشتبّه على حين أقول انهم كانوا يكلمونها . نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار . وانى لوانق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون . تلك كانت نظرتهم الى الطبيعة . ومع الحيوانات كانوا يعيشون فى سلام فلا يلحقون بالحيوان أى أذى ، ولا يصيونه بأى ضرر ؟ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالحب انما روّضوها وأنسّوها . وقد أدرونى النجوم وحدثونى عنها ، فقالوا لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم ، لا بالفكر والخيال ، بل بواسطة حية . نعم ، لم يفلح أولئك الناس فى أن يجعلونى أفهمهم . وكانوا يجبرونى بدون أن أفهمهم . ولكننى كنت أعلم فى مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهمونى ، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا . كنت أكتفى فى حضورهم بأن أقبل الأرض التى يعيشون عليها ، وكنت أنا نفسى أعشقهم عشقاً دون أن أنطق بكلمة . وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ، لا يشعرون من هيامى بهم واخلاصى لهم بخرج أو عار ، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزخرون حباً . وكانوا لا يتألمون لى ، حتى حين أقبل أقدامهم بأنهم يستجيبون لحنى بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم . وكنت أتساءل فى بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيئوا مرة واحدة الى انسان مثلى ، ولا أن يوقفوا فى نفسى شيئاً من عواطف الغيرة والحسد مرة واحدة أيضاً ؟ ساءلت نفسى مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل المباهى الكذاب ، ألا أحدثهم فى يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تساورنى رغبة فى ادهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين بمرحون ويطربون كالأطفال ، مطوّفين فى أرجاء أحراجهم الرائحة وغاباتهم ، صادحين بأغانيهم الجميلة . وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاباتهم ولبن نعاجهم الوديدة • كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل لتأمين طعامهم وكسائهم • وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ، ولكنى لم أر عندهم فى يوم من الأيام سوررات تلك اللذة « القاسية » التى يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً ، جميعهم وكل واحد منهم ، والتى هى ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريباً • كانوا يتهجون لميلاد الأطفال ابتهاجهم بضيوف 'جدد' وفدوا يشاركون فى عيد المسرات هذا • لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم الغيرة أبداً ، حتى انهم لا يعرفون معنى هذه الكلمة • كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم كانوا أسرة واحدة • وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهم يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه ينفو وينام وقد أحاط به ذووه يباركونه ويسمون له ، وهم أنفسهم يسمون هذه البسمة المضيئة حين 'يختضرون' • لم يتفق لى مرة واحدة أن رأيت لديهم عند الموت لا حزناً ولا دموعاً ؛ وانما رأيت ازدياداً فى الحب يبلغ به حدّ الوجد ، وهو وجد هادئ رصين فيه كمال وفيه تأمل • حتى ليقدر المرء أنهم يظلمون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض • انهم لم يكادوا يفهمون عنى حين سألتهم عن الحياة الأبدية • ولكن كان واضحاً أنهم - على غير شعور منهم - كانوا يبلغون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أنهم لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال • ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون فى تواصل دائم مع « الكل » العظيم • ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا يعلمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود الطبيعة الأرضية ، فان الاتصال بين البشر - الأحياء منهم والأموات - وبين « الكل » العظيم سيكون أوسع وأرحب ، فهم ينتظرون تلك اللحظة مبتهجين ، بغير تعجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات •

وهم فى المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غناء جوقات كاملة ؛ والأغنيات التى يسمعونها تعبر عن جميع الاحساسات التى عمرت قلوبهم فى النهار الذى انقضى ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه • وانهم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات • ويحلون لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتغنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؛ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر فى القلوب • ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً فى أغانيهم فحسب ، بل فى جميع ظروف الحياة فيما يبدو • ان نوعاً من حماسة ولهى شاملة متبادلة تجعل كلاً منهم ممثلاً بالآخر معجباً به مجباً له • لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التى تشيع فيها الأبهة ، وتترقق فيها معانى الانتصار • كنت أدرك ألفاظها ، ولكننى لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها • كان فكرى لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ان صح التعبير • ولكن قلبى كان يتشبع به شيئاً بعد شيء دون أن ينتبه الى ذلك • كنت أقول لهم فى كثير من الأحيان اننى قد سبق لى أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؛ وأن هذا الجبور وهذا الفرع قد انكشفا لى منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك فى صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحياناً حد الألم ؛ واننى قد تصورتهم جميعاً ، هم وما هم فيه من مجد ، فى أحلام قلبى وأحلام فكرى ؛ واننى كثيراً ما عجزت أثناء حياتى على أرضنا عن أن أتأمل غروب الشمس بدون أن أبكى ••• وان كرهى لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبىء • لماذا لم أستطع أن أبغضهم رغم أننى لم أحبهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن فى حبنى لهم ؟ لماذا كنت لا أحبهم بدون أن أكرهمهم ؟ فكانوا يصفون الى ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا الى معنى كلمائى • ولكننى كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأننى كنت أعلم أنهم يفهمون حزنى الذى يوقظه فى نفسى فراق من فارقتهم ! لا ، لا ،

حين كانوا يرمقوننى بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس فى صحتهم بأن قلبى يصبح برئياً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا آسف على أننى لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تقطع أنفاسى ، وأخذ أصلى لهم فى صمت •

آه ••• لا شك فى أن جميع الناس سيضحكون الآن منى ، وسيقولون انه يستحيل على المرء أن يرى فى الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التى أسجلها الآن ، واننى أثناء نومي ما رأيت ولا أحسست الا ما كان يبعثه فى قلبى هذيانى • أما التفاصيل فانما تخيلتها أنا تخيلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أعترف أن كل شئ لعله جرى على هذا النحو أيضاً ، فيالله ما كان أشدَّ الضحك الذى كنت أثيره فيهم ، وما كان أشدَّ المرح الذى كنت ألقيهم اليه ! ••• اذا صدق رأيهم ، فان الأمر لا يعدو أننى كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثير هو الذى بقى فى قلبى الجريح الدامى ؟ أما الصور والأشكال التى رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من اتساق الكمال ، وقوة السحر ، وبراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أننى حين استيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها فى أقوالى الضعيفة الهزيلة ، فلم يسمعها الا أن تمحى من فكرى ، فمن الجائز جداً والحالة هذه أننى اضطررت على غير شعور منى الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة فى أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أصدق أن ذلك كله قد وقع فعلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أننى سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما رأيته لم يكن حلمًا • ذلك أنه قد حدث شئ ، شئ فيه حقيقة تبلغ من الهول والفضاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رثى فى حلم • لنسلم أن هذا الحلم منشؤه قلبى ، فهل كان فى امكان قلبى أن يلقى الضوء على حقيقة ما حدث لى بعد ذلك ، وهى حقيقة مريعة رهيبة • كيف كان يمكننى أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل يُعقل أن يستطيع
 قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه
 النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم •
 لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن • ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى
 هذه اللحظة : اننى ••• قد أفسدتهم جميعاً •

٥

نعم ، نعم ، انتهيت الى افسادهم جميعاً ! كيف حدث ذلك ؟
لا أدري . ولكنى أحفظ ذكره واضحه أشد الوضوح . ان حلمى الذى
قطع ألوف السنين يترك فى نفسى احساساً بشيء متصل غير منقطع .
ولكنى أعلم أنى أنا كنت سبب الخطيئة الأصلية . ومثل دودة خنزير
معدية ، أو مثل ذرة طاعون سارية تستطيع أن تنتشر الوباء فى مملكة
بأسرها ، كذلك أفسد حضوري بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت
قبلى بريئة طاهرة . تعلموا أن يكذبوا ، واستطابوا الكذب ، وعرفوا جمال
الكذب . لعل ذلك كله قد بدأ « بريئاً » كل البراءة ، لعله بدأ مزاحاً
أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية ، ولعله قد حدث بفعل
ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم
فبدت لهم محببة . وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة ، وولدت اللذة الغيرة ،
وبعثت الغيرة على القسوة . آه . . . لا أعلم ! لم أعد أتذكر ! ولكنى
أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطلخة أولى ، فدهشوا ، وارتاعوا ،
وأخذوا يناون بعضهم عن بعض ، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ،
وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تعادى أحلافاً أخرى . وأخذت
الملامات والمآخذ والتقريعات تسمع . وعرفوا الحجل . وصار الحجل لهم
فضيلة . ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رؤوس

أفرادهم • وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات • فصارت الحيوانات تهرب منهم الى أعماق الغابة • وتناصبهم العداوة • وبدأ عهد جديد يمجّد في الإنسان • الخصوصية • و « الفردية » و « الشخصية » ويعلم الناس أن يفرّقوا بين ما هو لى وما هو لك • وتنوعت اللغات • وتعلموا الألم • وأحبوا الألم • وتاقوا الى الألم • وقالوا ان الحقيقة لا ' تكتسب الا بالألم • وظهر فيهم العلم • وغدوا أشراراً • فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والانسانية • وأدركوا تلك المعاني • وأمسوا مجرمين • فابتدعوا عندئذ العدالة • وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة • ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن ' تحترم • أوجدوا المقصلة • ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة • حتى انهم لم يشاءوا أن يصدقوا أنهم كانوا في الماضي بريئين سعداء • وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة • وسموا تلك السعادة حلماء • بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها في أشكال محسوسة • ولا أن يتصورها بأخيلة • ومن أغرب الأمور وأعجبها • أنهم مع ذلك • رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة • ورغم أنهم سمّوها حكاية مربية • ظل توقعهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم • وآلّوها ذلك التوق • وشادوا معابد • ووجّهوا الصلوات الى فكرتهم • الى « رغبتهم » • وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً • ولكنهم لا يكفون عن عبادتها بالصلوات والدموع • ومع ذلك لو كان في الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والسعادة تلك التي فقدوها • وأتيح لهم أن يستشفوها فجأة • وُسئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا اليها • فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون • وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون • أشرار • ظالمون • ليكن • نحن نعرف ذلك • ونحن بسبب هذا نبكى ونتألم وتنزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التي سينزلها فينا الديان الرحيم الذي سيحاسبنا والذي لا نعرف حتى اسمه • ولكننا نملك العلم • وبالعلم

سنتهدى الى الحقيقة ، فنقبلها فى هذه المرة واعين • ان المعرفة شئ يفوق العقل ، وان وعى الحياة يفوق الحياة • العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة هى فوق السعادة • • • ذلكم ما صاروا يقولونه • وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانية لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير ذلك • هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول أن يذل شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل • أصبحت المسألة فى نظره مسألة وجود وبقاء • وظهرت العبودية • حتى لقد وجدت عبودية متطوعة تطوعاً • فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طواعية ورضى ، بشرط أن يساعدهم الأقوياء فى سحق من هم أضعف منهم • وجاء الى هؤلاء الناس رجال عادلون صالحون ، فكلموهم عن صلتهم وكبرياتهم ذارفين الدموع ، وعابوا عليهم أنهم فقدوا القصد والاعتدال والاتساق ، وأنهم ضيعوا الحجل والخفر والحياء • فسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة • وانسكب دم القديسين على رحبات المعابد • وظهر فى مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يعيدوا الانسجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يحب غيره ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً ، وبذلك يشترك الأفراد جميعاً فى تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافة فى وفاق • وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ • ولكن هذا لا ينفى أن المقاتلين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى ستجبر البشر أخيراً على أن ينعقد اتفاقهم على ارساء قواعد مجتمع يسوده العقل ، وهم لذلك - أعنى « الحكماء » - يحاولون بانتظار أن تتحقق إقامة ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبة تقف فى طريق انتصارهم • ولكن عاطفة البقاء الشخصى ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ، المزهوين بصفاتهم ، الحريصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل

أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء . ومن أجل أن يحصلوا على كل شيء ، وجب عليهم أن يلجئوا الى الوحشية ، فاذا لم تفلح الوحشية لجئوا الى الانتحار . ووجدت ديانات تدعو الى عبادة اللاوجود ، وتنادى بتدمير الانسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية في أحضان العدم . وتسب هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسعور ، فحملت وجوههم آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؟ وأخذوا يمجدون الألم في أغانيهم . وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يدي حيرة عليهم وأذرف العبرات حزناً لهم ، ولكن لعنني صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل ذلك ، أيام كانت وجوههم خالية من الألم ، وكانوا بريئين وكانوا على ذلك الجانب كله من الجمال . وعدت أحب الأرض التي دَسَّسوها أكثر مما كنت أحبها أيام كانت جنة ، لا شيء الا لأن الألم ظهر فيها ! واأسفاه ! كنت قد أحببت العذاب والحزن دائماً ، ولكنني أحبيتهما لنفسى ، لنفسى وحدها ، فكنت أبكي عليهم وأرثي لحالهم . وصرت أمدُّ اليهم ذراعيَّ مكروباً يائساً ، أتهم نفسى وأدينها وألعنها وأحتقرها . قلت لهم اننى أنا الذى صنعت هذا الشر كله ، أنا وحدى ، واننى أنا الذى جلبت لهم الفساد والعدوى والكذب ! وتضرعت اليهم أن يصلبوني ، وعلمتهم كيف يصنع صليب . كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسى ، ولكنني أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم . كنت أتوق الى الألم . كنت أتطلع الى أن أسكب فى هذا الألم حتى آخر قطرة من دمي . ولكنهم كانوا لا يزدون على أن يضحكوا مقهقهين ، ولم يفتهم فى النهاية أن يعدوني مجنوناً مجذوباً الى عالم الغيب ، مجنوناً صوفياً . وأعلنوا لى أخيراً أننى أخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيحبسوننى فى ملجأ للمجانين اذا أنا لم أسكت . فاجتاح نفسى عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبى انقبض انقباضاً شديداً وأحسست أننى أموت وحينذاك ، استيقظت من نومي .

كان الفجر قد بدأ يتنفس ، ولمّا يطلع النهار بعد ، ولكن الساعة تقارب السادسة . فتحت عينيّ فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفسه ، وكانت شمعتي قد ذابت الى آخرها ، وكان كل شيء نائماً فى غرفة جارى الكابتن . وكان الصمت مخيماً حولى رغم ندرة الصمت فى بيتنا .

ان أول شيء بدر منى هو أننى وثبت من مكاني وقد اعترتني دهشة شديدة أقصى الشدة . لم يسبق أن حدث لى أمر كهذا فى يوم من الأيام . ولا حدث لى (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد . وبينما أنا أهبّ واقفاً وأتوب الى رشدى ، اذا بالمسدس الملقوم المهيأ لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصرى ، ولكننى سرعان ما أقصيته عنى . آ . . . الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعىّ أبتهل الى « الحقيقة » الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخذت أبكى وقد أخذت حميماً شديدة ، حميماً لا حدود لها ، ترفع وجودى كله ، وتسمو به . نعم ، يجب أن أحيا وأن أبشر ! ونذرت نفسى فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً . سأمضى أبشر . أريد أبشر . . . بماذا ؟ « بالحقيقة » ، ما دمت قد رأيتها ، رأيتها بعينى رأسى ، رأيتها فى كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحت أبشر ! وما أكرر ما أحب أولئك الذين يضحكون منى ! لعلنى أحبهم أكثر مما أحب غيرهم . لماذا ؟ لا أدرى ، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلاً أو تفسيراً . ولكن ليس لهذا من شأن . المهم أنهم يدعون الآن أننى أسير فى طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير اليه وقد سرت فى طريق خطأ . هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً . لا شك فى أننى سأغلط مراراً قبل أن اكشف كيف يجب علىّ أن أبشر ، أن ما هى الأقوال وما هى الأفعال التى ينبغى أن تكون سبيلى الى التبشير ، لأن رسالة التبشير ليست بالامر السهل . هذا كله أراه أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن . ولكن اسمعوا : من ذا الذى لا يضل الطريق ؟ من ذا الذى لا يسير فى

طريق خطأ ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بعينها ، من أحكم حكيم الى شرّ شرير . كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة . تلك حقيقة قديمة . ولكن اليكم على الأقل هذا الأمر الجديد : اننى لن أستطيع أن أُخدع عن نفسى كثيراً ، لأننى رأيت الحقيقة . رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحياوا على هذه الأرض . لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعي السوى العادى لأفراد البشر . ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحده انما يسخرون منى ويتحكمون على . ولكن كيف يمكن أن لا يصدقنى الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة . رأيتها رؤية ، ولم أتخيلها تخيلاً بالفكر . رأيتها رؤية ، وغمرتني « صورتها الحية » وملأت نفسى الى الأبد . رأيتها فى كمال مطلق يبلغ من التمام أننى لا أستطيع أن أصدق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضلّ الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة . ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة فى نفسى على الدوام ، فتعرف كيف تقوّم عوجى وتسدّد خطاى وتوجه سيرى . وانى امرؤ شجاع وان لى قوى نضرة ، فلأَمْضِينَ مبشراً ولو أَلْف سنة . أرايتم ؟ لقد أردت أن أخفى عنكم فى أول الأمر أننى أفسدت الجميع . وكان هذا الكتمان منى خطأ أول . ولكن « الحقيقة » همست تقول لى اننى أكذب ، فصاننى من الانزلاق ووجهت مسيرى . ماذا يجب أن نعمل لاقامة اللجنة ؟ - لا أدري ، لأننى لا أستطيع أن أعبر عن هذا بالفاظ . اننى منذ رأيت حلمى قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التى لا بد منها ولا غنى عنها . ولكن لن يهمنى هذا . لسوف أمضى ، وسوف أقول كل شئ بغير كلال ، لأننى قد رأيت بعينى رأسى ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيته . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو

كابوس ، هو هلوسة • • • هيه • • هيه • • ليس فى هذا الكلام كله
 سيطرة • وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؟ حياتنا كلها ،
 أليست حلمًا ؟ بل اننى لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمنى
 ألا تعود تلك الجنة بعد الآن أبدًا ، وليس يهمنى أنها لم تعد موجودة
 (وأنا أدرك ذلك) ، ولكننى سأمضى أبشرًا بالجنة رغم كل شئ •
 وما أبسط الأمر مع ذلك • ان من الممكن أن يعاد بناء كل شئ فى يوم
 واحد ، فى « ساعة واحدة » • وانما المهم أن يحب الانسان قرينه الانسان
 كما يحب نفسه • ذلك هو الشئ الأساسى الذى هو كل شئ ولا حاجة
 بنا الى شئ آخر سواء : فمتى وفرتموه عرقتم على الفور كيف تبثون
 الجنة • على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرروها
 مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تفرس جذورها فى النفوس ،
 انها لم ترسخ فى القلوب • لا يزال الناس يتصورون أن « وعى الحياة
 أعلى من الحياة • وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة » • وهذا
 بعينه ما يجب أن نكافحه • ولسوف أكافح • يكفى أن يريد كل الناس
 حتى يتم بناء كل شئ •

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتها • وسأمضى الى أمام •
 سأمضى •